بسم الله الرحمن الرحيم

٧١ - سورة نوح

عليه السلام

قال المهايميّ : سميت به لاشتمالها على تفاصيل دعوته وأدعيته . وهى مكية . وآيها ثمان وعشرون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢] (قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

[٣] (أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ)

[٤] (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

« إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » يعنى عذاب الطوفان « قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ » أى يعفو عنها . و (مِن) إما مزيدة ، أو تبعيضية . وهو ما وعدهم العقوبة عليها . وأما ما لم يعدهم العقوبة عليها ، فقد تقدم عفوه لهم عنها . أو هو ما سبق ، فإن الإسلام يجبُّ ما قبله « وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو أقصى ما قدره بشرط الإيمان . أى فلا يعاجلكم بعذاب غرق أو نحوه . « إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ » أى الذى كتبه على من كذب وتولى « إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العلم والنظر لأنبتُّمْ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا)

[٦] (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا)

[٧] (وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا)

[٨] (ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا)

[٩] (ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)

[١٠] (فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا)

[١١] (يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا)

[١٢] (وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا)

[١٣] (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)

[١٤] (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)

« قَالَ » أى نوح بعد أن بذل غاية الجهد ، وضاقت عليه الحيل ، فى تلك المدد الطوال ، «رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى» أى إلى التوحيد والعمل الصالح «لَيْلًا وَنَهَارًا» أى دائماً بلا فتور ولا توان . « فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا » أى من الحق الذى أرسلتنى به « وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ » أى إلى الإيمان « لِتَغْفِرَ لَهُمْ » أى بسببه «جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ » أى سدوا مسامعهم من استماع الدعوة «وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ» أى تغطوا بها من كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم فى الدين «وَأَصَرُّوا۟» أى على الشر والكفر «وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا» أى تعاظموا عن الإذعان للحق ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة « ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ

جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا » أى دعوتهم مرة بعد مرة، على وجوه متنوعة ، مابين مجاهرة وإظهار بلا خفاء، وما بين إعلان وصياح بهم، وما بين إسرار فيما بينى وبينهم فى خفاء . وهـذه المراتب أقصى ما يمكن للآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر . « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى سلوه العفو عما سلف بالتوبة النصوح « إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا » أى لذنوب من تاب وأناب . « يُرْسِلِ السَّمَآءَ » أى المطر « عَلَيْكُم مِّدْرَارًا » أى متتابعاً . « وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ » أى فيكثرها عندكم « وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا » أى لسقيا جناتكم ومزارعكم . « مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » أى لا ترون له عظمة ، إذ تشركون معه ما لا يسمع ولا يبصر . فنفى الرجاء مراد به نفى لازمه ، وهو الاعتقاد، مبالغةً . وجوّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف ، أى ما لكم لا تخافون عظمة الله. ومنه قوله[1] :

* إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا *

قال الشهاب : وهو أظهر .

---

(١) قائله أبو ذؤيب الهذلىّ ، من قصيدته التى مطلعها :

أساءلتَ رسمَ الدار أم لم تُسائلِ عن السِّكْن أم عن عهده بالأوائلِ ؟

السكن : جمع ساكن وهم أهل الدار وسكانها من يهوى ـ أى يرتفع إليهم ويريدهم ، ومنه قوله تعالى: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ـ والمسكن : المنزل نفسه .

ويروى بيت الشاهد هكذا :

إذا لسعته الدَّبْرُ لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نُوبٍ عَوَاسِلِ

قال : وربما أنشدت * وحالفها * وقوله : لم يرج لسعها أى لم يخش لسعها . والنوب : التى تنوب ، تجىء وتذهب .

انظر الصفحة رقم ١٤٣ ، من ديوان الهذليين ، القسم الأول .

« وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » أى تارات ، ترابًا ثم نطفًا ثم عَلَقًا ثم مضغًا ثم أجنَّة ، وهكذا طوراً بعد طور . أى ومقتضى علم ذلك شدة الرهبة من بطشه وأخذه ، لعظيم قدرته. هذا فى أنفسكم . وهكذا يستدل على باهر عظمته ، وقاهر قدرته من آياته الكونية . كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا)

[١٦] (وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا)

[١٧] (وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا)

[١٨] (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)

[١٩] (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا)

[٢٠] (لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)

«أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا* وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا » أى يزيل ظلمة الليل، وينير وجه الأرض. « وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا » أى أنشأكم منها . « ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا » أى للحساب والجزاء. « وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا » أى تستقرون عليها وتمتهدونها. « لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » أى طرقاً مختلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا)

[٢٢] (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)

[٢٣] (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)

[٢٤] (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا)

[٢٥] (مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا)

« قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي » أى خالفوا أمرى وردّوا علىّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد، «وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا » أى رؤساءهم المتبوعين، أهل المال والجاه ، المعرضين عن الحق ، الذين غرتهم أموالهم وأولادهم ، فهلكوا بسببهما ، وخسروا سعادة الدارين .

«وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا» أى متناهياً كبره ، فإن (الكبّار) أكبر من (الكبير).

« وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا » قال قتادة : كانت آلهة تعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك .

قال : فكان (ود) لكلب بدومة الجندل ، وكانت (سواع) لهذيل ، وكان (يغوث) لبنى غطيف من مراد بالجرف ، وكان (يعوق) لهمدان ، وكان (نسر) لذى الكلاع من حمير .

وقال (فى رواية) : والله ما عدا ـ أى كلٌّ منها ـ خشبة أو طينة أو حجراً .

وقال ابن جرير[1] : كان من خبرهم ـ فيما بلغنا ـ من محمد بن قيس قال : كانوا قوماً صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصورهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وروى البخاريّ [١] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب ، بعدُ : أما (ود) ، فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما (سواع) فكانت لهذيل ، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبنى غُطَيف بالجرف عند سبا ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان ، وأما (نسر) فكانت لحمير لآل ذى الكَلَاع: أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ، وَتَنَسَّخَ العلمُ ، عبدت.

تنبيهات :

الأول ـ قال الرازىّ : فى انتقالها عن قوم نوح إلى العرب . إشكال ، لأن الدنيا قد خربت فى زمان الطوفان ، فكيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت إلى العرب . ولا يمكن أن يقال إن نوحاً عليه السلام وضعها فى السفينة وأمسكها ، لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها ، فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها فى السفينة سعياً منه فى حفظها؟ انتهى كلامه .

ونحن نقول : إن جوابه بديهىّ ، وهو أن انتقالها إلى العرب بواسطة نقل أحوال قوم نوح وأبنائهم وعوائدهم ، على ألسنة الرحّل والسمّار ، لأن سيرة القرن المتقدم فى العصر المتأخر ، وسنة الخالف أن يؤرخ السالف . وجلىّ أن النفس أميل إلى الجهل منها إلى العلم، لاسيما إذا زين لها المنكر بصفة تميل إليها، فتكون ألصق به . وهكذا كان بعد انقراض العلم وحملته ، أن حدث ما حدث من عبادتها ، كما أشارت إليه رواية ابن عباس عند البخارىّ : حتى إذا هلك أولئك ، وتَنَسَّخ العلم ، عبدت . وعجيب من الرازىّ أن لا يجد مخرجاً من سؤاله ، وهو على طرف الثُّمَام .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧١ ـ سورة نوح ، ١ ـ باب وَدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ، حديث رقم ٢٠٦٦ .

الثانى ـ قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : حكى الواقدىّ قال : كان (ود) على صورة رجل ، و (سواع) على صورة امرأة و (يغوث) على صورة أسد ، و (يعوق) على صورة فرس ، و (نسر) على صورة طائر . وهذا شاذ، والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر ، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار فى سبب عبادتها . انتهى .

الثالث ـ قال ابن القيّم فى (إغاثة اللهفان) أول ما كاد به الشيطان عبّاد الأصنام ، من جهة العكوف على القبور ، وتصاوير أهلها ، ليتذكروهم بها ، كما قص الله سبحانه قصصهم فى كتابه فقال: (وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ..) الآية .

ثم قال : وتلاعب الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم : فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم ، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ، ولهذا لعن[1] النبىّ ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ، ونهى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل[2] ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً، وقال[3]: اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وأمر بتسوية القبور ، وطمس التماثيل ، فأبى المشركون إلا خلافه فى ذلك كله ، إما جهلًا ، وإما عناداً لأهل التوحيد، ولم يضرهم ذلك شيئاً .... إلى آخر ما ذكره رحمه الله .

---

(١) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٦٢ ـ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، حديث رقم ٢٨٥ ، عن عائشة .

وإلى الحديث الذى أخرجه كذلك فى: ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧١ ـ باب بناء المسجد على القبر ، حديث رقم ٢٨١ ، عن عائشة أيضاً .

(٢) يشير إلى الحديثين اللذين رواهما مسلم فى صحيحه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز، حديث رقم ٩٢ عن فَضالة بن عُبَيْد ، و ٩٣ عن علىّ بن أبى طالب .

وقوله تعالى: «وَقَدْ أَضَلُّواْ» أى : الرؤساء «كَثِيرًا» ، أى خلقاً كثيراً ، أو الأصنام كقوله تعالى[1] : (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ) . « وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا » أى خذلانا واستدراجا . وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم .

قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، وتعليل الدعاء عليهم به « مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ » أى من أجلها « أُغْرِقُواْ » أى بالطوفان « فَأُدْخِلُواْ نَارًا » أى أذيقوا به عذاب النار « فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا » .

قال الزمخشرىّ : تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله ، وأنها غير قادرة على نصرهم ، وتهكم بهم ، كأنه قال فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله ، كقوله تعالى[2] : (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا) .

وقال الرازىّ : لما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات ، بطل القول بالوسائط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا)

[٢٧] (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)

[٢٨] (رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا)

« وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا » أى أحداً .

قال ابن جرير[3] : يعنى بـ (الديّار) من يدور فى الأرض فيذهب ويجىء فيها ، وهو (فَيْعال) من الدوران ، ديوارا اجتمعت الياء والواو ، فسبقت الياء الواو وهى ساكنة ، وأدغمت الواو فيها ، وصيرتا ياء مشددة . والعرب تقول: مابها ديّار ولاعريب ولا دَوِىّ ولاصافر ولانافخ ضَرَمة

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ » عن طريق الحق . « وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » قال أبو السعود : أى إلا من سيفجر ويكفر . فوصفهم بما يصيرون إليه ، وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه ، من أن الدعاء بالاستئصال، مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن ، منكر ، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم ، بعد ما جرّبهم ، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة .

وقال بعضهم : ملَّ نوح عليه السلام من دعوة قومه وضجر ، واستولى عليه الغضب ، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم، وحكم بظاهر الحال أن المحجوب الذى غلب عليه الكفر لا يلد إلا مثله ، فإن النطفة التى تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة ، وتتربى بهيآتها المظلمة ، لا تقبل إلا نفساً مثلها ، كالبذر الذى لا ينبت إلا من صنفه وسنخه . انتهى .

« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » قال ابن جرير[1] : أى رب اعف عنى، واستر علىّ ذنوبى وعلى والدىّ ، « وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا » قال ابن جرير[1] : أى ولمن دخل مسجدى ومصلاى، مصلياً مؤمناً بواجب فرضك عليه . وقيل: بيتى منزلى . « وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا » أى هلاكاً وخساراً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .